القاضي والذباب

الجاحظ *

كان لنا بالبصرة قاضٍ يقال له : عبد الله بن سوّار ، لم ير الناس حكماً قط .زمّيتاً (١)، ولا ركيناً (٢)، ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من جركته مثل الذي ضبط وملك . كان يصلي الغداة في منزله ، وهو قريب الدار من مسجده فيأتي مجلسه فيحتبي (٣) ولا يتكيء . فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ولا يحل حبوته ، ولا يحل رجلاً على رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه (٤)، حتى كأنه بناء بني أو صخرة منصوبة. فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ولايزال كذلك حتى يقوم إلى العصر . ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب . ثم ربما عاد إلى محله ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك ، إذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلي العشاء،وينصرف .

فالحق يقال لم يقم في طول تلك المدة والولاية ، مرة واحدةً إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماءً ولا غيره من الشراب . كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها . وكان مع ذلك ، لا يحرك يده ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم .

فبينا هو كذلك. ذات يوم ، وأصحابه حواليه ، وفي السماطين(٥) بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المكث ، ثم تحول إلى مؤق(٦) عينه فرام الصبر في سقوطه على المؤق وعلى عضه ونفاذ خرطومه ، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرك أرنبته (٧)، أو يغضّن وجهه ، أو يذبّ بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله ، وأوجعه ، وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم ينهض . فدعاه ذلك إلى أن يوالي بين الإطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه . ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه في مكان كان قد أوهنه قبل ذلك . فكان احتماله له أضعف ، وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد في شدة الحركة ، وألح في فتح العين ، وفي تتابع الفتح والإطباق . فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته . ثم عاد إلى موضعه فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بداً من أن يذبّ عن عينيه بيده ، ففعل. وعيون القوم إليه ، ترمقه ، وكأنهم لايريدونه . فتنحى عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كمه . ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه . فلما نظروا إليه قال : « أشهد أن الذباب ألح من الخنفساء ، وأزهى من الغراب . وأستغفر الله ! فما أكثر من أعجبته نفسه فأراد الله عزوجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ! وقد علمت أني عند نفسي من أضعف الناس ، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه،ثم تلا قوله تعالى (**وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب**). وكان بيّن اللسان ، قليل فضول الكلام. وكان مهيباً في أصحابه ، وكان أحد من لم يطعن عليه في نفسه ، ولا في تعريض أصحابه للمنالة.

---

١) الزمّيت : الكثير الوقار.
٢) الركين : الرزين
٣) احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها
٤) الشقان : الجانبان.
٥) أي منتظمين بالقرب منه.
٦) مؤق العين : طرفهما مما يلي الأنف.
٧) أرنبة الأنف : طرفه.
٨) ذبّ : دفع ورد.

* منتخبات الأدب العربي – جماعة من أساتذة اللغة العربية ، ص٢٨٠-٢٨٢ ط٣، بيروت – ١٩٦٨م.